بيروت

من خلال عيون الرحالة المسلمين



اعدّ المادة وترجمها : نبيل شحاده

مقدمة

لا يختلف اثنان على ان الأهداف الأساسية للرحالة عبر التاريخ, كانت التعرف على بقاع جديدة وما فيها من قيم إنسانية و معتقدات وتقاليد ومعالم وانشطة اقتصادية, رغم ان بعضهم كان في مهمات رسمية ودوّن في مراسلاته ما يمكن اعتباره ثروة تاريخية.

هذه الكتابات تبقى دائما مصدرا لمعلومات ثمينة واحيانا نادرة, و تفيدنا في استكمال صور بيروت التاريخية, ومعرفة مظاهر الحياة التي كانت سائدة فيها او تطورها مع اختلاف ازمان هؤلاء الرحالة.

في هذه الصفحات, سوف نبحر في مطالعة وقراءة دراسة رائعة كتبها الباحث التركي "فرات كوسكو" في مجلة كلية العلوم الاجتماعية في جامعة سينوب التركية, تحت عنوان "مدينة بيروت من خلال عيون الرحالة المسلمين (1890-1914)", لأنها بحسب وصفه:"بيروت واحدة من أكثر المدن الملونة في لبنان, بل حتى في الشرق الأوسط, من حيث التنوع الديني والحضاري", ويضيف ان " بيروت, التي كانت تقريبًا قرية في بداية القرن التاسع عشر, أصبحت في نهايته, واحدة من المدن الساحلية الرئيسية للإمبراطورية , و برزت بين المدن التي كانت تتنافس على ان تكون الميناء التجاري للمنطقة".

سوف انقل لكم تباعا ومترجما الى العربية, بعض الفقرات المهمة التي وردت في كتب رحّالة مسلمين متنوعي الأصول, ومختلفي الثقافات, و هم ممن زاروا بيروت, و كتبوا عن جغرافيتها ومناخها وعمارتها وسكانها والتركيبة الديموغرافية والتعليم والثقافة والحياة الاجتماعية وحياة الناس فيها.

جغرافية بيروت

نبدأ بما كتبه العالم والأديب و المؤرخ الهندي شبلي نعماني (1892) في "كتاب السفر الى الأناضول وسوريا ومصر "(1) عن جغرافية بيروت وقارن بين المدينة القديمة والضواحي الجديدة التي نشأت حولها فيقول: بيروت هي مدينة ساحلية ومحطة انطلاق الى كل سوريا. وهي تُعتبر أيضًا مركز الثقافة والحضارة في هذه المنطقة. الجزء القديم من المدينة متهالك ومتداع للغاية والشوارع ضيقة ومليئة بالحفر. والمنازل فيها مسطحة وخانقة. لكن الجزء الجديد من بيروت, فهو متألق للغاية وجميل المظهر. تكثر فيه المطاعم والفنادق والمقاهي, وقد جُدّد بناء أحد المقاهي في وسط البحر وله منظر رائع.
الطقس الرطب هنا اتعبني وابطأ حركتي إلى حد ما. ومع ذلك يقول الجميع إن الهواء هنا مفيد جدًا للصحة الى حدٍ, اعتاد الناس القدوم من أماكن أخرى الى هنا لتغيير الهواء وتحسين صحتهم.
يسود اعتقاد بين مسؤولي الدولة (العثمانية) ان طقس بيروت مفيد للأمراض. ولذلك يأتي العديد من الموظفين والمديرين إلى بيروت. على سبيل المثال, في 27 كانون الأول 1890 , أُرسل محافظ دير الزور, محمد صلاح الدين أفندي, إلى بيروت لمدة شهرين لتلقي العلاج من مرض المّ به.

وممن جاء أيضا الى بيروت, محافظ بازارجيك محمد أفندي, ضابط شرطة دمشق حسين قنديلي, محافظ منطقة باياس إلفان بك, محافظ منطقة بني صعب نجيب نادر أفندي, ومحافظ إشارة محمود صلاح الدين بك, ومدير السجلات في طرابزون محمد أمين أفندي. هؤلاء عدد قليل من الضباط الذين اُرسلوا إلى بيروت للعلاج, اما في وثائق الأرشيف, فيُلاحظ أن عددا اكبرا من المسؤولين من جميع أنحاء الإمبراطورية اُرسلوا الى هنا للعلاج أو تغيير الهواء".

وننتقل الى فقرة أخرى مأخوذة من كتاب "رسائل عراقية من بيروت إلى الكويت" (2) للحقوقي والسياسي والكاتب من اصل كردي والنائب عن بغداد في مجلس المبعوثان, بابان زاد إسماعيل حقي بك (1908) والذي اصبح لاحقا وزيرا للتعليم العثماني لمدة قليلة. فهو وصف جغرافية بيروت بدقة, وكرّر

تقريبا ما قاله شبلي نعماني حول الجزء القديم المُهمل من بيروت قائلاً:" مباني بيروت القديمة مرتفعة و مقوّسة. وفيها رائحة كريهة لأن شوارعها ضيّقة وقاتمة ومغطاة في اغلب الأحيان".
اما عن الجزء الجديد فوصفه بالتالي:"مباني بيروت الجديدة حجرية وأنيقة, وشوارعها عريضة وواسعة. وينتشر في شواطئها الصخور فتشكل طوقا طبيعياً لها. لا توجد مياه راكدة في المنطقة, و على الرغم من اعتدال الطقس, الا أن درجة الحرارة في الصيف تتراوح بين 30 و 35 درجة, و يصعب معها تحّمل الرطوبة الزائدة.
من الضروري الاعتراف بأن موقع المدينة جميل , ومحيطها النظيف يريح سكانها, فضلاً عن غابة الصنوبر المنعشة, التي يمكن اعتبارها متناغمة مع مدينة بيروت".

يتابع "بابان زاد" كلماته حول المعالم الجغرافية للمدينة على النحو التالي: "من المناظر غير المرئية في جهة رأس بيروت, موقع الروشة, الذي يسمونه أيضا مغارة الحمام, ويتألف من صخور عالية جذابة ومذهلة على الشاطئ الذي عَمل فيه التآكل والنحت بفعل ضربات الأمواج المستمرة, وشكّل تجاويف في غاية الشاعرية, وخلق مناظر طبيعية فريدة من نوعها لا تشبع من النظر اليها.
ومن السمات البارزة الأخرى لبيروت أنها تقع على سفح الجبل, فيستفيد سكان المدينة من الهواء النقي للجبال ومن تجارتهم اليومية في المدينة, حيث ينتقلون في الصيف إلى منتجعاتهم الجبلية بسهولة, مثل (سكان إسطنبول) الذين يعبرون في كل يوم مضيق البوسفور ".

الشاعر والروائي وكاتب الرحلات والمفكر والمترجم"علي سعاد" (1911) وصف في كتابه "رحلاتي إلى سوريا والعراق ونجد والحجاز"(3) كروم العنب والبساتين التي شاهدها في بيروت قائلا : "على طول الطريق, حدائق صغيرة وبسيطة على اليسار, والبحر على اليمين. وفي هذه الحدائق كانت أشجار التوت المخصصة لديدان القز, وكروم العنب, وأشجار التين ومزروعات

اخرى. مشهد شاطئ البحر كان جذابا , مع صخوره المنحوتة وضربات الأمواج الصغيرة المتألقة".

الأديب والطبيب العثماني من اصل مقدوني,"جناب شهاب الدين" الذي زار بيروت بعد الرحالة الذين ذكرناهم بوقت بعيد, وصف في كتابه " انطباعات عن بيروت وفلسطين ونابلس في 1918 " (4) المعالم الجغرافية لبيروت على النحو التالي: "الجبال والشمس والبحر. هذه هي العظائم الثلاث التي تلخّص بيروت. في الأفق الغربي, تموجات البحر الأزرق, و في الأفق الشرقي تلال مذهبة ومشرقة,يقوم على الوانها الارجوانية والزرقاء, ابنية حجرية بيضاء وانيقة: ها هي بيروت!

انشطة التعليم

نتوقف عند امر لفت انتباه معظم المسافرين الذين وصلوا الى بيروت وشغل بالهم أحيانا, وهو انشطة التعليم في المدينة, التي كانت في الغالب بيد الأجانب, فيما المدارس الإسلامية كانت متأخرة في العدد والجودة.
ومن ذلك ما كتبه شبلي نعماني :" على الرغم ان التطور العلمي في بيروت بدأ منذ وقت قصير, الا انه وصل الى مرحلة لا يمكن أن تكون مدينة أخرى في البلدان الإسلامية غير اسطنبول مساوية لبيروت. وفي بعض الجوانب, كانت بيروت تتقدم على إسطنبول".
اما "بابان زاد إسماعيل حقي بك" الذي زار المنطقة نفسها بعد حوالي خمسة عشر عامًا من نعماني, فأكد على رقي مستوى التعليم في بيروت, مضيفاً :"بفضل المدارس التي افتتحها الأميركيون والفرنسيون هنا, يتحدث نصف سكان المدينة تقريبًا الفرنسية وبعضهم يتحدث اللغة الإنجليزية. وبفضل المدارس الأجنبية, فإن مستوى التعليم وصل إلى درجة عالية جدًا, لدرجة أنك لا تجد هذا المستوى من الثقافة العامة في إزمير في الأناضول, او حتى البلاد الرومية".

يتابع نعماني: "الذوق الأدبي شائع جدًا بين الناس في بيروت, لدرجة أن الأطفال يحبون الشعر ومتحمسون له. وكثير من الناس لديهم كتب شعر. وهناك العشرات بل المئات أو حتى الآلاف ممن يستطيعون تأليف خمس او عشرة قصائد من الشعر". وهذا ما أكده ايضاً "بابان زاد ", فقال:"المتعلمون هنا يعتبرون الجهل بالشعر والأدب امر يدعو الى الإزدراء".

تضيء هذه الدراسة أيضا على وضع غير عادي و حالة تململ محلية من سيطرة الأجانب وافكارهم على التعليم, وما رافق ذلك من دعوات من عدة اطراف الى ضرورة التحرك لإنقاذ الآخرين من هذا "الخطر". ومن التفاصيل المثيرة للاهتمام أن مدرسًا أرمنيًا في مدرسة ثانوية ببيروت يُدعى مهران بوياسيان, قدّم كتابا حول الخطر الذي تشكله المدارس المسيحية. وأوردت الدراسة جدولا كشف ان عدد المدارس والطلاب غير المسلمين في المدينة مرتفع للغاية, حتى ان المسلمين غير موجودين في مراحل التعليم العالي.

لام "بابان زاد" التعليم الأجنبي على النحو التالي: "إذا أردنا إنقاذ جميع الطبقات الشعبية في بيروت من التعليم الديني المسيحي, فيجب أن نفتح مدارس تفوق جودة المدارس الأجنبية الموجودة حاليًا. وليس مقبولا ان نتوقف, فيما فرنسا نفسها تحاول جاهدة الإفلات من التعليم الكاثوليكي؟ ". أما "نعماني" فأورد شيئا يصب في نفس المعنى فقال: "ما يحزننا هو أن هذه المدينة وهي مركز الإدارة الإسلامية (ولاية بيروت) وعلى الرغم من أن المسلمين هم من يحكمون هنا, فإن المسلمين هم في الخلفية مقارنة بالمسيحيين في الثقافة والحضارة".

أقول, ان هذه النصوص الصريحة والتي لا يسرّ لها البعض, تُظهر وجها ايجابياً حاول الكثيرون طمسه و اخفاءه لاهداف سياسية, الا و هو تسامح الدولة العثمانية مع الطوائف غير الإسلامية, ومنحها لهم الحريات الكاملة في مجالات العلم و الثقافة و الفكر, و لو كان ذلك على حساب المسلمين وتقدمهم و تطورهم.

الصورة بشكلها الأكبر واطارها الأوسع, يقدمها لنا الرحالة الطبيب و عضو حزب الاتحاد والترقي "شرف الدين ماغومي" حول المدارس الإسلامية في بيروت:"التعليم العام متقدم للغاية وهناك مدرسة ثانوية مدنية, ومدرسة الرشدية الثانوية العسكرية, ومدرستان للطب افتتحهما الأمريكيون ومدارس القساوسة الفرنسيين ومدارس بروتستانتية وكاثوليكية, وثمانية عشرة مطبعة ومكتبة. والمحزن أنه في المدارس الابتدائية الإسلامية,لا يزال التعليم يتم بالطريقة القديمة ".

هذه الطريقة القديمة, يصفها لنا "يوسف أكشورا" هو كاتب وسياسي ومؤرخ ونائب ومفكر عثماني من التتار, وشغل منصب رئيس الجمعية التاريخية التركية, فيذكر في كتابه "رسائل سوريا وفلسطين" ملاحظات مفصّلة حول المدارس التي زارها شخصيًا في بيروت وتوضح الفروق الكبيرة بين المدارس الأجنبية و مدارس المسلمين, ويقول:"بعيداً عن الأكواخ المؤقتة المصنوعة من سعف النخيل, حيث يجلس الأطفال على الأرض ويصرخون وكأنهم في مدرسة, فلا يوجد مدرسة للعرب في بيروت غير الكلية العثمانية. وعندما نلقي نظرة على مخطط مدينة بيروت, فكل المباني الكبيرة هي مدارس أجنبية.

في بيروت, يوجد مدارس عديدة قام الفرنسيون والأمريكيون والبريطانيون والألمان واليونانيون والأرمن واليهود وحتى الأتراك ببنائها. مدارس بمستويات متوسطة ودنيا, و لكن الأقل تعليمًا هم العرب المسلمون!".

الحياة الاجتماعية وحياة الناس

يشير الباحث الى ان كتب السفر والرسائل واليوميّات والذكريات والمذكّرات, هي أعمال فريدة ومصادر مباشرة تتضمن معلومات مهمة حول الحياة الاجتماعية للمنطقة. و لكن, يجب التعامل معها بحذر. لأن ما هو مكتوب فيها يستند على الخبرة الشخصية, و هي أحكام ذاتية تتأثر بالعوامل العاطفية

والسياسية و الثقافية والشخصية, وإذا حُققت بشكل صحيح, فستكون قيّمة لفهم هذه المراحل الزمنيّة بشكل كبير.
هكذا يمكن استنتاج وادراك بعض مكنونات شخصية أهل بيروت, التي كتب عنها "بابان زاد إسماعيل حقي بك" في كتابه : " ما يُذهل, انه لا يمكن انكار الاجتهاد الرائع الظاهر بوضوح لأهل بيروت, والذكاء المُذهل في توجيه هذا الاجتهاد. ففيهم يمكن رؤية موهبة خاصة لكل نوع من التجارة, وهذا هو السبب في أن بيروت بلد تجاري أكثر منه بلد صناعي ".
اما ملاحظات "شبلي نعماني" فركزت على المظهر الخارجي للناس فكتب:"اللغة الغالبة هنا هي العربية. وقواعد اللباس قريبة جدا من النمط العربي. لكن السراويل على غرار النوع الكابولي في أفغانستان, الذي يتدلى بين قدميه ما يشبه خرطوم الفيل. و يحتاج هذا السروال لصنعه الى حوالي عشرة أمتار من القماش. المسلمون والمسيحيون والدروز يرتدونها جميعا. اما المتعلمون حديثًا فقد بدأوا في ارتداء السترات والسراويل الغربية".

"شرف الدين ماغومي", أكد على ما ذكره الآخرون عن اجتهادِ اهل بيروت, وأضاف في ملاحظاته امرا حول اللغة فكتب: “أهل بيروت مجتهدون واذكياء للغاية. وعلى الرغم من أن اللغة المحلية المحكية هي العربية, إلا أن الفرنسية والإنجليزية شائعتان جدًا. حتى عمال المراكب والرسامون يفهمون إحدى هاتين اللغتين. اما اللغة التركية فلا تجدها في أي مكان آخر غير الدوائر الحكومية".

ينتقل بعد ذلك الباحث الى الحديث عن النفوذ الأجنبي القوي في بيروت العثمانية الإسلامية, والتي رأى ان البرجوازية المسيحية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر وجدت في بيروت مستقرّاً لها حول المدينة وقريب من الميناء, واصبحت ذات قوة اقتصادية ومؤثرة سياسيا واقتصاديا وفكريا. ولهذا السبب ، كان لمظاهر الحياة الاجتماعية الأوروبية انتشار واسع في حياة الناس.
ومن مظاهر الحياة في بيروت أيضا, يذكر "القيلولة" ظهرا وهي النوم وقت الغداء, حيث تفرغ الشوارع من المارة. هذا التقليد الذي يتكامل مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قِيلُوا؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ".

فيما يتعلق بالنقل, يوضح الباحث, إن المعلومات التي قدّمها الرحالة ليست كثيرة. فقد تحدثوا عمومًا عن الأماكن التي زاروها, واغفلوا جزء الرحلة وحرصوا على عدم إطالة الموضوع. لذلك, على الرغم من عدم وجود معلومات مفصلة حول النقل, الا اننا نفهم ان بيروت, المدينة التجارية, كانت من أوائل المدن التي أدخل اليها السلطان عبد الحميد الثاني شبكة نقل متطورة , وخطوط الترام, ومصابيح الشوارع, وابراج الساعات وكذلك العمارات على الطراز الغربي.
"شرف الدين ماغومي"تحدث عن عربات "الديليجانس" الأوروبية الطراز, و"فايتون", والحافلات العامة, والسكك الحديدية التي تربط بيروت بدمشق.

ونبقى اخيراً مع ملاحظة "يوسف أكشورا", عن التجارة و ازدهارها الكبير في بيروت فيكتب:"إنهم يحبون المال كثيرًا, إنهم تجار جيدون جدًا, ولأن دماء الفينيقيين القدماء تسري في عروقهم, فهم ما زالوا يمارسون التجارة بنفس الطريقة التي فعلها الفينيقيون, ولا يأخذون في الحسبان آلاف السنين التي مرت".

خاتمة

يتضح لنا بحسب الباحث, ومن خلال قراءة ما "اقتبسناه من الرحّالة, فمدينة بيروت تختلف عن غيرها من مدن شبه الجزيرة العربية في كثير من النواحي".
الناس هنا يعملون بجد و نشاط وبها أناس يجيدون العديد من اللغات الغربية الى جانب العربية, ولها هوية مختلفة عن المدن العربية الأخرى من حيث التعددية اللغوية والحضارية, و بها تصدر معظم المطبوعات العربية.
يوجد في بيروت ميناء تطور بشكل خاص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر, و كان يشهد نشاطا كبيرا في نقل البضائع والركاب, اما الناس فكانوا مشغولون بجميع أنواع التجارة ومنها الخدمات المصرفية.
أثّر التطور الكبير في فرص التجارة والنقل على الحياة الاجتماعية في المدينة, وجذب نماذج الحياة الاجتماعية الأوروبية اليها.
أصبحت بيروت بتنوعها الديني والثقافي, مدينة تعكس التركيبة الفسيفسائية العرقية للإمبراطورية العثمانية بأممها المختلفة وبنيتها العالمية.
الأنشطة التعليمية في بيروت كانت متطورة للغاية, وبيروت كانت المدينة الوحيدة في الجغرافيا العثمانية, التي نافست اسطنبول.

وآخر الكلام عن بيروت, سيكون كما وصفها الشعراء و الادباء:
أحلام وآمال وأفراح. واليأس لا يكون فيها دائمًا أيضًا.
متعبة, ومملة, لكنها جميلة بشكل لا يوصف. انها بيروت الجميلة.

(1) Şibli Numani - Anadolu,Suriye,Mısır Seyahatnamesi
(2) İsmail Hakkı Babanzade - Beyrut’tan Kuveyt’e Irak Mektupları
(3) Ali Suad- Suriye, Irak, Necid ve Hicaz Seyahatlerim
(4) Cenab Şahabeddin - Beyrut, Filistin ve Nablus İzlenimleri 1918